إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهدي الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [آل عمران: 102]

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً} [النساء: 1]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً} [الأحزاب: 71]

أمّا بعد:

فإنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

ثم يا معاشر الفضلاء؛ ما أجمل هذا اليوم الذي نبدأه بصلاة الفجر في جماعة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم! وصلاةٌ في مسجد نبينا صلى الله عليه وسلم خيرٌ من ألف صلاةٍ فيما سواه إلا المسجد الحرام، وصلاة الفجر صلاةٌ مشهودة تشهدها الملائكة، ثم نُعقِب ذلك بمجلسٍ في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومَن جلس مجلس علمٍ في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو موعودٌ بتحصيل فضل طلب العلم، كما أنه موعودٌ بتحصيل ثواب الحج الذي تمَّ لصاحبه، كما أنه موعودٌ بتحصيل ثواب أجر المجاهد في سبيل الله.

نعقِد هذا المجلس لنتكلَّم عن ربنا سبحانه وتعالى، ولنعرف ربنا سبحانه وتعالى كما عرَّفنا بنفسه، وعرَّفنا به رسوله صلى الله عليه وسلم.

نتكلَّم عن ربنا كلامًا صحيحًا كما في القرآن وسُنَّة سيِّد ولد عدنان؛ من غير زيادةٍ ولا نُقصان ولا تحريفٍ ولا طغيان، وذلك من خلال شرح كتاب العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله- هذا الكتاب الصغير في حجمه، العظيم في علمه ونفعه الذي لم يذكر فيه شيخ الإسلام ابن تيمية –

رحمه الله- إلا آيات القرآن، وما صحَّ من النصوص، وما أجمع عليه سلف الأمّة وأهل القرون الثلاثة المفضَّلة كما تقدَّم معنا بيانه في أوَّل الكلام عن هذا الكتاب.

ولازال كلامُنا عن عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة في أسماء ربنا وصفاته سبحانه وتعالى.

وَلِهَذَا كَانَ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ فِي لَيْلَةٍ؛ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ.

تكلم شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله- عن ما في آية الكرسي مما يتعلق بأسماء ربنا -سبحانه- وصفاته، أعني أنه ذكر هذه الآية وقد علَّقنا عليها وبيَّنا فضلها ومعاني ما فيها بحسب الإمكان، وإلا فمعانيها كثيرةٌ جدًّا، وما فيها من الحِكم والعلم والفوائد شيءٌ كثيرٌ جدًّا.

ولمَّا كانت هذه الآية كما ذكرنا فيما مضى قال شيخ الإسلام –رحمه الله-: **وَلِهَذَا كَانَ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ فِي لَيْلَةٍ؛ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ،** فما يُحفَظ به الإنسان في ليله، ويُحفَظ به في نومه: أن يقرأ آية الكرسي، وقد جاء في حديث أبي هريرة –رضي الله عنه- لمَّا وكَّله النبي صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة الفطر أنّ الشيطان سَرَقَ منه ليلةً بعد ليلة، وكان يُمسِكه، ثم يُظهِر الضَّعف والمَسكنة والتوبة وأنه لا يَرجع، فيُطلِقه –رضي الله عنه-، ثم إنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال له:((مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟))، يعني في كل ليلة كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول له في كل ليلة: ((مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟))، فيقول: زعم أنه لا يعود، فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم: ((كَذَبَكَ وَإِنَّهُ سَيَعُودُ))، فيعود في الليلة الثانية، فلمّا كان في المرَّة الثالثة، قال: "دَعْنِي أُعَلِّمْكَ ما يَنْفَعُكَ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ **{اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}** إلى آخرها؛ فَإِنَّه لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ". فلمّا أخبر النبيَّ صلى الله عليه وسلم بهذا قال: ((صَدَقَكَ)) يعني في هذا الذي قال؛ أنك إن قرأتَ آية الكرسي إذا أويتَ إلى فراشك سيَحفظُك الله في تلك الليلة، ولا يقربك شيطان بأذى حتى تُصبِح، قال: ((صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ))، فإبليس في غاية الكذب، كذوبٌ، متَّصِفٌ اتِّصافًا كليًّا بالكذب، لكنه صَدَقَ فيما قال.

وهذه القصة رواها البخاري في الصحيح تعليقًا، حيث قال: "قال عثمان بن الهيثم: حدَّثنا عوف عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة.

ووَصَلَهُ النسائي في (الكبرى) بنفس هذا الإسناد؛ إلا أنه جاء فيه: أخبرَنا إبراهيم بن يعقوب قال حدَّثنا عثمان بن الهيثم، إلى آخر الإسناد.

قال الألباني: وَصَلَهُ النسائي، والإسماعيلي، وأبو نُعيمٍ، بسندٍ صحيح.

ومن هنا أخذ العلماء أنه إذا هاجَت أحوالٌ شيطانية على الإنسان من وساوس أو تفكيرٍ شديدٍ في المعصية أو نحو ذلك أنه إن قرأ آية الكرسي يَطرُدُ ذلك الشيطان عنه، فإن كان ما يَهيج عليه إنما هو من الشيطان فقط فإنه يَندفع عنه، وإن كان من هوى النفس ونحو ذلك يَندفع مكر الشيطان، فهذه الآية آيةٌ تَطرُد الشيطان، وتُبعِد الشيطان عن الإنسان، كما أنّ البقرة تَطرُد الشيطان وتُبعِد الشيطان.

وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ}.

هنا قوله: (**وَقَوْلِهِ**) يصح فيه الكسر، الجر، ويصح فيه الرفع، فيصح أن تقول: وقولِهِ، ويصح أن تقول: وقولُهُ.

أمّا الكسر؛ فلأنه عطفٌ على قول الشيخ رحمه الله عزَّ وجلَّ، وقد دخل في هذه الجملة ما وَصَفَ الله به نفسه في سورة الإخلاص، هذا تقدَّم، فيكون المعنى هنا: وقد دخل في هذه الجملة ما وَصَفَ الله به نفسه في قولِهِ:{**وَتَوَكَّلْ**}.

ويصحُّ فيها الرفع، فيكون المعنى هنا: ودخل في هذه الجملة -التي تقرَّرت في إجمال عقيدة السلف- قولُهُ تعالى.

فيصح في القراءة أن تقول: "وقولِهِ" كما ضُبِط في بعض النُّسخ، وفي بعض الطبعات، ويصح أن تقول: "وقولُهُ"، كما ضُبِط في بعض الطبعات. والمعنى صحيح على الحالين.

وهنا لا يزال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله- يُفصِّل ما أَجمَله في أوَّل الكلام من عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة في الأسماء والصفات، ويُبيِّن أنّ أهل السُّنَّة والجماعة هم الموافِقون للنصوص لفظًا ومعنىً، من غير زيادةٍ عليها، و لا قُصورٍ عنها، ولا تحريفٍ لها، لا في ألفاظها، ولا في معانيها، فألفاظهم واعتقاداتهم مطابِقةٌ لِمَا في القرآن والسُّنَّة.

يقول الله عزَّ وجلَّ: **{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ}**.

{وَتَوَكَّلْ} أي: اعتمد في جلب منافعك، ودفع المضار عنك، على الله؛ ثقةً به، مع فعل الأسباب الصحيحة، هذا التوكل، أن تعتمد على ربك سبحانه وتعالى في جلب المنافع، ودفع المضار؛ ثقةً به سبحانه، مع فعل الأسباب الصحيحة، فإنّ فِعْلَ الأسباب الصحيحة من التوكل، ولا يُنافي التوكل، لكنّ الاعتماد ليس عليها، وإنما الاعتماد على المُنعِم بها على الله سبحانه وتعالى، وقد تقدَّم الكلام عن التوكل والتفصيل في شرحنا لكتاب التوحيد.

{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ} "الحي": اسمٌ من أسماء الله عزَّ وجلَّ، وفيه صفة الله عزَّ وجلَّ، والحي: هو الذي له الحياة الذاتية الكاملة الدائمة التي ليس لها انقطاع ولا انتهاء، فهو حيٌّ سبحانه **{لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ}**، فلا تنقطع حياته حتى بالنوم، وحتى بالسِّنة، كما تقدم معنا في شرح آية الكرسي، ولا انتهاء لها، فهو سبحانه وتعالى لا يموت، **{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ}**.

وقول الله عزَّ وجلَّ: **{الَّذِي لا يَمُوتُ}** فيه بيان كمال هذه الحياة، وتأكيد كمال هذه الحياة، وأنه لا يلحقها انتهاء، ففي هذه الآية إثباتُ صفةٍ ثبوتيَّة على وجه التفصيل، وفيها نفيٌ على وجه التفصيل.

والحكمة من النفي هنا - مع أنَّا قلنا إنّ الغالب أنّ النفي يأتي على سبيل الإجمال، وقد يأتي على سبيل التفصيل لِحكمة- **الحِكمة هنا هي**: تأكيد كمال هذه الحياة، وأنه لا يلحقها انتهاءٌ أبدًا.

وفي هذه الآية الشريفة دلالةٌ على أنّ المستحِقَّ للعبادة هو الحي الذي لا يموت؛ وهو الله سبحانه وتعالى، فلا يَستحق أن يُعبَد إلا الحي الذي لا يموت؛ ولذلك قال: **{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ}**، وذِكْرُ الصفة هنا كالتعليل، كأنّ المعنى: وتوكل على الله لأنه حيٌّ لا يموت.

والتوكل عبادة، وهذا يدل على أنّ المستحِقَّ للعبادة هو الحي الذي لا يموت، وأنّ كل حيٍّ دون الله لا يستحق شيئًا من العبادة؛ فإنه يموت ولا يَدفع عن نفسه الموت، فكيف يُعبَد؟! كل حي دون الله؛ الملائكة، والأنبياء، والأولياء وغيرهم، لا يستحقُّ شيئًا من العبادة ولو قلَّت؛ لأنّ كل حيٍّ دون الله يموت، ولا يَدفع عن نفسه الموت، فكيف يُعبَد؟!

وإذا كان ذلك في الحي الذي يموت حال حياته، فكيف بالميت المقبور في قبره، الذي لم يستطع أن يدفع عن نفسه الموت وقُبِر، فلم يستطع أن يدفع عن نفسه أن يُهال عليه التراب كيف يستحق أن يُعبَد من دون الله؟! وكيف يُستغاث به من دون الله؟! وكيف يُدعا من دون الله؟!

وإذا كان هذا في الحي الذي يموت، فكيف بمَن لا يحيا أصلًا ولا حياة له؛ كالأصنام؟! لا شك أنه لا يستحق العبادة إلا الله، ومَن صرف شيئًا من العبادة لغير الحي الذي لا يموت فقد أشرك؛ ولو كان ذلك قليلًا، ولو قال: إنما أجعل هذا واسطة بيني وبين الله، ولو قال: أنا كثير الذنوب، كثير الدنس لا يليق بي أن أخاطِب الله مباشرة فأجعل واسطة! فإنّ فِعْلَه هذا أعظم الأدناس وأعظم الذنوب، فهو لم يقدِّم ما ينفعه، بل زاد دنسه -لو سلَّمنا أنه دنسٌ- دنسًا أعظم مما كان؛ وهو دنس الإشراك بالله عزَّ وجلَّ، والإشراك بالله يمنع إجابة الدعاء.

أمّا كون الإنسام مسلمًا فاسقًا فإنّ هذا لا يمنع إجابة الدعاء، وإن كان كلّما كان الإنسان أصلَح كلّما كانت إجابة دعائه أقرب.

فالشاهد: أنّ هذه الآية العظيمة التي معنا كما دلَّت على اسم الله عزَّ وجلَّ الحي، وعلى اتصافه بالحياة اتصاف كمال إذ أن حياته لا تنقطع ولا تنتهي؛ دلَّت على أنّ المتصف بهذه الصفة هو المستحق للعبادة سبحانه وتعالى.

وقوله: {هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

يعني: وقد دخل في هذه الجملة ما وَصَفَ الله به نفسه في قوله سبحانه: **{هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}**.

وقول الله عزَّ وجلَّ: **{هُوَ الأَوَّلُ}** إلى آخر الآية يقول العلماء: جملةٌ مُعرَّفة الطرفين، طرفاها معرِفة**{هُوَ الأَوَّلُ}**.

والجملة المعرَّفة الطرفين في لغة العرب تدل على الاختصاص، فهذا السياق يدل على اختصاص ربنا سبحانه وتعالى بهذه الأسماء الأربعة على الإطلاق، فلا تَثبُت لغيره إلا على سبيل التقييد، فلا يُقال: لمخلوق "الأوّل" بالإطلاق، وإنما يُقال: الأوّل مقيَّدًا؛ فيُقال: الأوّل من طُلاب الفصل، مُقيَّد بالنسبة لطلاب الفصل، أمّا الأوّل مطلقًا فلا يُطلَق إلا على الله سبحانه وتعالى. وهكذا في بقية هذه الأسماء.

وتَلْحظون هنا أنّ ربنا سبحانه وتعالى أدخَل الواو بين هذه الأسماء التي فيها الصفات؛ مع أنها أسماء لموصوفٍ واحد، وفيها صفات لموصوفٍ واحد، قال العلماء: **فائدة إدخال الواو هنا بين الأسماء هي:** الدلالة على اجتماعها؛ ليدل على أنها مُجتمعة، لماذا؟ لأنّ هذه الأسماء متباعدة متقابلة، "الأوّل" يُقابل ذلك تمامًا: "الآخر"، "الظاهر" يُقابل ذلك تمامًا: "الباطن"، فهي متباعدة متقابلة؛ فجيء بالواو لدفع توهم الانفراد وأنها لا تجتمع؛ وللدلالة على اجتماعها في حق ربنا سبحانه وتعالى؛ وذلك لكمال ربنا سبحانه وتعالى في ذاته وأسمائه وصفاته.

وقد فسَّر النبي صلى الله عليه وسلم هذه الأسماء تفسيرًا بيّنًا، وإذا جاء التفسير على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وجب على المؤمن أن يعتقده، وأن يَلزَمه، وألّا يُفسِّر بغير تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد قال صلى الله عليه وسلم: **((اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ))** رواه مسلمٌ في الصحيح.

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ)) فيه:

- إثبات اسم الله "الأوّل" ومعناه.

- وفيه تحقيق وتأكيد معنى الأوّلية بالنفي.

((أَنْتَ الْأَوَّلُ)) هذا إثبات.

((فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ)) هذا نفي، **وفائدة هذا النفي التفصيلي:** تأكيد هذه الأوّلية، وأنه لا يلحقها نقصٌ بوجهٍ من الوجوه.

فالله هو الأوّل، الأوّل اسمه، والأوّلية صفته، **بمعنى:** أنه سبحانه كان ولم يكن شيءٌ قبله، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عندما سأله قومٌ من أهل اليمن، النبي صلى الله عليه وسلم جاءه قوم من بني تميم، فقال لهم: **((أَبْشِرُوا))**، قالوا: قد بشَّرتنا فأعطِنا، نُريد عطية، فجاءه قومٌ من أهل اليمن، فقال أهل لهم: **((اقْبَلُوا الْبُشْرَى حيث أباها بَنو تَمِيمٍ))**، فقبلوا البِشارة، وقالوا: قد أتيناك لنتفقَّه في هذا الأمر، ونسأل عن أوّل هذا الأمر: ما كان؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **((كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ))** رواه البخاري في الصحيح.

وفي روايةٍ عند البخاري: **((كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ))**.

أوّل هذا الأمر أنه «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ»، «وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ»؛ على الروايتين في صحيح البخاري.

فـ"الأوّل" كما قال ابن جرير -رحمه الله عزَّ وجلَّ-: "هو الأوّل قبل كل شيءٍ بغير حدٍّ -انتبهوا!- هو الأوّل قبل كل شيءٍ بغير حدٍّ -فالله هو الأوّل قبل كل شيء- ولا حَدَّ لأوّليته، فليس لأوّليته ابتداء، ولم يسبقه عدمٌ ولا شيء". لم يسبقه شيءٌ من الأشياء ولم يسبقه عدم سبحانه وتعالى.

وهذا الاسم يدل على أنّ كل ما سوى الله حادثٌ وكائنٌ بعد أن لم يكن موجودًا، وأنه مخلوق، خَلَقَهُ الله عزَّ وجلَّ، **وهذا يقتضي من المؤمن:** أن يُوقِن أنّ الأمر كله لله، وأنّ كل خَلق الله بيد الله، فلو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه بشيءٍ إلا إن كان الله قد كتب له ذلك، ولو اجتمعوا على أن يضروه بشيءٍ لم يضروه بشيءٍ إلا أن يكون قد كتب الله عليه ذلك، فكيف لا يُعلِّق قلبه بالله؟! وكيف يَلتمس رضا الناس بسَخط الله؟!

المؤمن إذا أيقن هذا فإنّ غاية مُناه أن يُرضيَ الله، ولا يَلتفتُ إلى قلوب الناس، وإنما يَكِلُ قلوب الناس إلى رب الناس؛ إن رضي عنه وكان في رضاهم عنه خيرٌ له أرضى عنه الناس، وهذا يجعل المؤمن

إن حقَّقه متجرِّدًا للحق، فلا يقول باطلًا من أجل أن يُرضي أحدًا، بل إن ظهر له الحق واستنار جَهَرَ به، ولو قال الناس: تغيَّر! ولو قال الناس: انتقل من حالٍ حسنة إلى حالٍ سيئة! مادام أنه عَلِم وتيقَّن بعِلْمِه أنّ هذا يُرضي الله عزَّ وجلَّ أقدَم عليه، ثم قلوب الناس يَكِلها إلى الله عزَّ وجلَّ، فإن كان في رضاهم عنه خيرٌ له سيُرضي الله الناس عنه. وهكذا في سائر أموره.

وكذلك بالنسبة للأسباب؛ المؤمن إذا أيقن أنّ الله هو الأوّل فإنه يوقِن أنّ الأسباب سَبَقَها عدم، ويَلحَقها عدم.

مثلًا: الطبيب سبب من أسباب الشفاء، وقد سبق الطبيب عدمٌ فلم يكن موجودًا أصلًا، ثم لمّا وُلِد سَبَقَ علمه بالطب عدمٌ؛ فلم يكن يَعلم الطب، ثم سيَلحقه عدمٌ فيموت، فإذا أيقن المؤمن من هذا فإنه يفعل الأسباب الصحيحة؛ لأنّ الله جعلها أسبابًا، ولا يَلتفت إليها بقلبه؛ لأنها كانت عدمًا، ولا يُعلِّق قلبه بها؛ لأنها يلحقها العدم، وإنما يكون التفات قلبه وتعلُّق قلبه بالله عزَّ وجلَّ، حتى عند فعل السبب لا يَتعلَّق قلبه بالسبب، وإنما يتعلق بالله؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى هُوَ الأوّل.

{وَالآخِرُ }، الله عزَّ وجلَّ هو "الآخِر"، وقد فسّره النبي صلى الله عليه وسلم الآخِر بقوله: **((وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ))**؛ فأثبَت لله عزَّ وجلَّ اسم "الآخِر" والمعنى –أي الصفة-؛ بدليل أنه قال: **((فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ))**، فليس هذا الاسم مجرَّدًا، فنقول: هو الآخِر، ثم نقول: لا معنى له! أو نقول: لا نعرف معناه! بل النبي صلى الله عليه وسلم أثبت الاسم ومعناه، فقال: **((فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ))**، وأكَّد كمال هذه الآخِريَّة وأنه ليس بعد الله عزَّ وجلَّ شيء، فهذه الآخِريَّة لا يلحقها نقصٌ بوجهٍ من الوجوه.

و"الآخِر" -كما قال ابن جرير-: هو الذي يكون بعد كل شيءٍ بغير نهاية". انتبهوا! الأوّل: قبل كل شيء بغير حَدّ، والآخِر: بعد كل شيء بغير نهاية، فليس لآخِريَّته انتهاء، ولا يلحقه عدم سبحانه وتعالى، وهذا يدل على بقائه وأبديَّته سبحانه وتعالى.

طيّب؛ لعلي أستشفُّ وأستشعِر أنّ في أذهانكم سؤالًا؛ وهو: أنّ الجنة لا تَفنى، وأنّ النار لا تَفنى، وأنّ أهل الجنة مُخلَّدون بلا موت، وأنّ أهل النار مُخلَّدون بلا موت، وهذه آخِريَّة، إذن الجنة آخِر؛ ليس بعدها شيء، لا تَفني، ليس بعدها عدم، لا يلحقها عدم، والنار كذلك، وأهل الجنة كذلك، وأهل النار كذلك

قلنا: إنّ هذه الآخِريَّة ناقصة، والآخريَّة المطلَقة إنما هي لله عزَّ وجلَّ، ونَقْصُها من وجهين:

الوجه الأول: أنها مسبوقةٌ بالعدم، لم تكن الجنة موجودة؛ فخَلقها الله، ولم تكن النار موجودةً؛ فخَلقها الله، وأهل الجنة لم يكونوا موجودين فخَلقهم الله، ثم أماتهم الله، ثم بعثهم، ثم أدخلهم الجنة، وكذا أهل النار.

إذن؛ هذه الآخِريَّة مسبوقة بعدم. أمّا ربنا سبحانه وتعالى فهو الأوّل والآخِر، فلا حدَّ لابتدائه ولا انتهاء لآخِريَّته.

إذن؛ الجنة، والنار، وأهل الجنة، وأهل النار، وإن كان لا نهاية لآخِريَّتهم بل هم مؤبَّدون؛ إلا أنّ هناك حدًّا لأوّليَّتهم، لوجودهم، هذا الوجه الأوّل.

الوجه الثاني: أنّ أبديَّة ربنا -يعني آخِريَّة ربنا- ذاتية، أمّا أبدية الجنة وأبدية النار وأبدية أهل الجنة وأبدية أهل النار فهي بإبقاء الله عزَّ وجلَّ لها ولهم، فلو شاء الله لأفنى الجنة، لو شاء لأفنى النار، لو شاء لأمات أهل الجنة كما أماتهم في الدنيا، ولكنه أعطاهم فضلًا منه الأبديَّة لجنتهم، والأبديَّة فيها، وجعل للنار الأبديَّة، والأبديَّة فيها.

فتحصَّل عندنا أن نُدرِك وأن نفهم أنه مع كون الجنة باقية لا تَفنى، وكون النار باقيةً لا تَفنى، وكون أهل الجنة لا يموتون بل هم مؤبَّدون، وأنّ أهل النار الذين لا يَخرجون منها لا يموتون بل مؤبَّدون فيها؛ أنّ هذه الآخِريَّة ناقصة وليست مطلَقة. وأمّا الآخِريَّة المطلَقة فهي لله عزَّ وجلَّ.

{وَالظَّاهِرُ} "الظاهر" فسَّره النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: **((وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ))**، فأثبَت النبي صلى الله عليه وسلم الاسم والمعنى، وتمام المعنى.

"الظاهر" اسمٌ لله عزَّ وجلَّ ومعناه: أنه ليس فوقه شيء، وتأكَّد تمام هذا المعنى بالنفي، فالظاهر: هو الذي ليس فوقه شيء، فكل عالٍ مهما علا حسًّا أو معنىً فالله عزَّ وجلَّ فوقه، إن علا الإنسان في الدنيا فالله فوقه وأعلى منه، فكيف تُقدِّم رضاه على رضا الله؟! والله عزَّ وجلَّ مستوٍ على عرشه.

فهذا الاسم "الظاهر" يَتضمَّن معنى اسم العالي، ليس الظاهر والعالي بمعنىً واحد من كل وجه، ولكنّ معظم معنى الظاهر هو معنى العالي، فالظاهر يتضمَّن معنى اسم العالي، فلا شيء أعلى منه سبحانه وتعالى، فهو مستوٍ على عرشه فوق مخلوقاته، كما سيأتي بيانه إن شاء الله عزَّ وجلَّ.

{وَالْبَاطِنُ} فسَّره النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: **((وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ))**، فأثبَت النبي صلى الله عليه وسلم الاسم، والمعنى -أي: الصفة-، وأكَّد كمال هذا المعنى.

و"الباطن": هو الذي ليس دونه شيء، فلا شيء أقرَب إلى شيءٍ من الله، ولا يَحجِب شيءٌ شيئًا عن الله، فلا تَحجِب سماءٌ سماءً، ولا أرضٌ أرضًا، ولا مخلوقٌ مخلوقًا، ولا يَحتجِب عنه ما في البطون، لا يَحتجِب عنه ما في بطون الأمهات، ولا ما في بطون الأودية، ولا ما في بطون البحار، ولا غير ذلك، ولا تَختلط عليه مخلوقاته، ولا يَختلط عليه صوتٌ بصوتٍ، فالله مع علوِّه بذاته قريبٌ بعِلْمِه وسمعه وبصره وإحاطته سبحانه وتعالى.

فهذا الاسم يتضمَّن معنى اسم القريب، انتبهوا "الظاهر" يتضمَّن معنى اسم "العالي"، و"الباطن" يتضمَّن معنى اسم "القريب"، فهو سبحانه وتعالى قريبٌ من مخلوقاته بقدرته، وسمعه، وبصره، وعلمه، كما أجمع عليه أهل السُّنَّة والجماعة.

وهذه الأسماء الأربعة مجتمعة تدل على: كمال إحاطة الله عزَّ وجلَّ بخَلقه، فهو سبحانه وتعالى بكل شيءٍ مُحيط، **وهذه الإحاطة التي تدل عليها هذه الأسماء الأربعة:**

- إحاطةٌ زمانية.

- ومكانية.

أمّا الإحاطة الزمانية: ففي اسم "الأول" و"الآخر"، فهذه إحاطةٌ زمانية.

وأمّا الإحاطة المكانية: ففي اسم "الظاهر" و"الباطن".

فكلُّ سابِقٍ مسبوق، كل سابقٍ دون الله مسبوق، فتنتهي أوّليَّته إلى حدٍّ، والله هو الأوّل، وكلُّ متأخِّرٍ بعده شيء، وآخريَّته ناقصة إلا الله سبحانه وتعالى، فهو الآخِر الذي ليس بعده شيء.

ومن جهة المكان: كل عالٍ فالله فوقَه، وكل قريبٍ فالله أقرب منه، على ما بيَّنا معناه.

وختم الله عزَّ وجلَّ هذه الآية بما يُناسِب هذه الأسماء الأربعة، فمادام أنّ الله **{هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ}** فاليقينُ أنه بكل شيءٍ عليم، ولذلك قال سبحانه: **{وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}**، فهو سبحانه الذي كَمُل عِلْمه كمالاً مطلَقًا، وأحاط عِلمه بالأمور كلِّها؛ مُتقدِّمها ومُتأخِّرها.

متقدِّمها: فالله هو الأوّل، ومتأخِّرها: فالله عزَّ وجلَّ هو الآخِر.

وظاهرها وباطنها، فالله هو الظاهر وهو الباطن سبحانه وتعالى.

جهرها وسرها، فهو سبحانه بكل شيءٍ عليم.

بقي مبحث يذكره أهل العلم في هذه الأسماء وهو: هل هذه من الأسماء المقرونة التي لا تُفرَد، وإنما تُذكَر مقرونة كـ"الضار والنافع"، و"المانع والمعطي"، فإنّ الضار مقرون لا يُذكَر إلا مع النافع، والمانع مقرون لا يُذكَر إلا مع المعطي، فهل هذه الأسماء: "الأوّل، والآخِر، والظاهر، والباطن" من هذا الباب فلا تُذكَر إلا مقرونة، فنقول: "الأوّل والآخر"، ولا نقول: الآخر فقط، ونقول: "الظاهر والباطن"، فلا نقول: الباطن فقط، أم ماذا؟

أولاً: أذكر لكم الضابط الذي أخذه أهل العلم من النصوص في الأسماء التي لا تُذكَر إلا مقترِنة ولا تُذكَر مفرَدة.

الضابط عند أهل العلم: أنّ إفرادها يوهِم النَّقص، فلو قلتَ: "الضار" وسكتَّ؛ السامع قد يتوهَّم أنّ هذه صفة نقص، لكن إذا قلتَ: "النافع والضار"، فهذا يدل على تمام الملك والتصرُّف، فهل هذه الأسماء من هذا الباب -التي لا تُذكَر إلا مقرونة- أو لا؟

طبعًا هذا السؤال ليس تَرَفًا علميًّا، بل يترتَّب عليه ما يتعلَّق بالذِّكر، وتترتَّب عليه أحكام فقهية.

الاسم الذي لا يُذكَر إلا مقرونًا لا يُسمّى أو لا يُعبَّد في الأسماء، فلا يجوز أن يتسمى إنسان فيقول: أنا عبد الضار! ما يجوز، مع أنه يجوز يقول: عبد الله، عبد الرحمن، لكن ما يجوز أن يُسمِّي عبد الضار، ويُقال: الله هو الضار، فهذا الاسم لا يُذكَر إلا مقرونًا، لا يُذكَر مفرَدًا.

والأظهر عندي -والله أعلم- أنّ هذه الأسماء ليست من الأسماء التي لا تُذكر إلا مقترنة أو مقرونة بالآخَر، بل يجوز ذكرها مفردة، فيصح أن يقول الإنسان: الله هو الأوّل، الله هو الآخِر، الله هو الظاهر، الله هو الباطن.

وعليه؛ يصح أن يُسمَّى، فيُقال: عبد الأوّل، عبد الآخِر، عبد الظاهر، عبد الباطن.

هذا الأقرب -والله أعلم- لأنّ الضابط المذكور لا ينطبق على هذه الأسماء.

لكنّ تمام وكمال المعنى في اقتران كل اسمين، في أن تقول: هو "الأوّل والآخِر"؛ ليدل على الإحاطة الزمانية دلالةً ظاهرةً أصلية، وتقول: هو "الظاهر والباطن"؛ ليدل على الإحاطة المكانيّة دلالةً ظاهرةً أصلية. فهذا الأقرب -والله أعلم-، فاقترانهما يدل على كمال الإحاطة المقصودة، "الأوّل والآخِر" المقصود فيها كمال الإحاطة الزمانية. "الظاهر والباطن" المقصود منها كمال الإحاطة المكانية؛ مع كون كل اسمٍ لله عزَّ وجلَّ مع معناه، اقترانهما يدل على عموم الإحاطة الزمانية أو عموم الإحاطة المكانية.

هذا ما يتعلق بهذه الآية الشريفة العظيمة، التي فيها معانٍ عظيمة، ففيها أسماءٌ لربنا سبحانه وتعالى، لها أثرٌ عظيم في معتقَد الإنسان، وفي أقواله، وفي أعماله.

فإذا عَلِمَ الإنسان هذه الأسماء الأربعة مع ما خُتِمَت به الآية أنّ الله هُوَ الأَوَّلُ، وَالآخِرُ، وَالظَّاهِرُ، وَالْبَاطِنُ، وأنه بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، سدَّ هذا كثيرًا من مداخل الشيطان عليه، وأثَّر هذا في حُسن أقواله، وفي حُسن أفعاله، وفي شدة تعظيمه لربه، وفي شدة خوفه من ربه سبحانه وتعالى، وعظيم مراقبته لله عزَّ وجلَّ.

ولا شك يا عبد الله أنك كلّما كنت بالله أعلم كنت له أخوَف؛ **{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء}**.

فأسأل الله عزَّ وجلَّ أن يزيدنا علمًا به سبحانه وتعالى، وأن يرزقنا أثر هذا العلم في قلوبنا وأقوالنا وأعمالنا، وأن يجعل تعلُّمنا هذا زيادةً لنا في القرب منه، وفي القرب من مَراضيه، وأن يُباعِد بيننا وبين ما يُغضِبه كما باعَد بين المشرق والمغرب.

ولعلنا نقف عند هذا الموطن، ونُكمل -إن شاء الله- في الدرس القادم.